أوراثيو كيروغا (الأوروغواي)

الرجـــل الميـــت

كان الرجل وساطوره قد انتهيا من تنظيف المجاز الخامس لبستان الموز. كان مازال امامهما مجازان للتنظيف ؛ ولكن بما أن في هذين المجازين تكثر اشجار الشركا والخيزى البرية، كان العمل الذي ينتظرهما بسيطا. ألقى الرجل اذن نظرة طافحة بالرضى على الشجيرات المكشوطة وعبر الاسلاك الشائكة ليستلقي قليلا على عشب النجيل.

لكن لما هبط السلك الشائك ومر الجسم، زلقت قدمه اليسرى على قطعة قشرة ساقطة من العمود، في الوقت الذي افلت الساطور من يده. بينما كان الرجل يسقط، خيل اليه، بطريقة بعيدة عن الجلاء، أنه لا يرى على الأرض الساطور بوضوح.

آلان كان مستلقيا على النجيل، راقدا على جنبه الأيمن، كما كان هو يريد تماما. فمه الذي انفتح انفتاحا اقصى، كان قد انسد كذلك. كان في الوضع الذي تمنى ان يكون فيه، ركبتاه مثنيتان ويده اليسري على صدره. الفرق هو ان خلف ذراعه، وتحت الحزام مباشرة، كان يبرز من قميصه مقبض الساطور ونصف نصله. لكن البقية لم تكن ترى.

حاول الرجل ان يحرك رأسه، بلا جدوى. ألقى نظره بمؤخر عينه على مقبض الساطور الذي مازال يبلله عرق يده. قدر ذهنيا اتساع ومسير الساطور داخل بطنه، وثبت لديه بكيفية باردة، رياضية، حتمية، التأكيد بأنه وصل الآن الى نهاية وجوده.

الموت. خلال حياتنا نفكر مرات كثيرة اننا ذات يوم، بعد اعوام، شهور، اسابيع وأيام تحضيرية، سنصل بدورنا الى عتبة الموت. انها السنة المحتومة، المقبولة المتوقعة، لدرجة اننا اعتدنا ان نسمح لخيالنا بأن يأخذنا راضين الى تلك اللحظة العليا بين اللحظات، التي نطلق فيها آخر زفرة.

لكن بين اللحظة الحاضرة وتلك الزفرة الأخيرة، كم حلم، كم اضطراب، كم امل، كم مأساة نتوقع في حياتنا ! ماذا يدخر لنا هذا الوجود الطافح بالقوة قبل ان يقصى من الخشبة البشرية ؟! هذا هو عزاء، متعة، باعث هذياننا الجنازي : ما أبعد الموت عنا ! وكم هي لا متوقعة الأيام التي سنعيشها !

سنعيشها... ؟ لم تمر ثانيتان : الشمس مازالت في العلو نفسه بالضبط، الظلال ما تقدمت ميليمترا واحدا. انتهى فجأة الآن الهذيان الآجل بالنسبة للرجل المستلقي : انه يموت. ميت. ليعتبر نفسه ميتا في وضعه المريح.

لكن الرجل يفتح عينيه وينظر . كم مر من الوقت ؟ اية كارثة طرأت على العالم ؟ اي اختلال للطبيعة رشح هذا الحدث الرهيب ؟

سيموت ببرودة، بحتمية، بلا مناص، سيموت.

الرجل يقاوم ــ كم هو لا متوقع هذا الهول ! ــ ويفكر : هو كابوس، نعم ! ماذا تبدل ؟ لا شيء. وينظر : أليس بستان الموز هذا بستانه ؟ ألا يجيء كل صباح لينظفه ؟ من يعرفه كما يعرفه هو ؟ هو يرى البستان بوضوح، كثافته قليلة جدا، والأوراق العريضة تواجه الشمس عارية. هي هناك، قريبة، منسولة بفعل الريح. لكنها الآن لا تتحرك... هذا هدوء الظهر، قريبا ستكون الثانية عشرة.

بين اشجار الموز، هناك فوق، يرى الرجل من الأرض الصلبة سقف داره الأحمر. الى اليسار، يلمح الغابة وبستان القرفة. لا يستطيع ان يرى اكثر من ذلك، لكنه يعرف جيدا ان وراءه يوجد طريق المرسى الجديد، وأن في اتجاه رأسه، هناك تحت، في قاع الوادي، يرقد نهر «بارانا» كبحيرة. كل شيء، كل شيء كما كان دائما تماما، الشمس النارية، الهواء المتذبذب المنفرد، اشجار الموز اللامتحركة، الأسلاك الشائكة ذات الاعمدة الغليظة العالية التي نجب ان يبدلها قريبا.

ميت ! ولكن أهذا ممكن ؟ أليس هذا نهار بين نهارات كثيرة خرج فيها من داره فجرا بالساطور في يده ؟ ألا يوجد في هذا المكان نفسه، على بعد اربعة امتار منه، حصانه، احمره، وهو يشم الأسلاك الشائكة هادئا ؟.

ولكن نعم ! احدهم يصفر... لا يستطيع ان يرى، لانه يدير للطريق ظهره، لكنه يحس برنين خطوات الحصان على القنيطرة... إنه الفتى الذي يمر كل صباح متجها الى المرسى الجديد، في الحادية عشرة والنصف. ودائما مصفرا... من العمود المقشر الذي يكاد يمسه بجزمته الى سياج الشجيرات الغابوي الفاصل بين بستان الموز والطريق يوجد خمسة عشر مترا طويلة. يعرف ذلك جيدا، لأنه هو بنفسه لما رفع الأسلاك الشائكة قاس المسافة.

ماذا يجري اذن ؟ أذاك هو ظهر طبيعي بين اظهر كثيرة في «ميسيونيس»، في غابته، في مرتعه، في بستان موزه القليل الكثافة ام لا ؟ بلاشك ! نجيل قصير، مخروطات نمل، صمت، شمس عمودية...

لا شيء، لم يتغير شيء. هو وحده مختلف. منذ دقيقتين اثنتين، لم يعد لشخصه، لشخصيته العائشة، اية صلة بالمرتع الذي كونه هو بنفسه بالفأس طوال خمسة شهور متوالية، ولا ببستان الموز الذي خلقه بيديه وحدهما. ولا بأسرته. لقد قلع فجأة بعنف، بطريقة طبيعية، بفعل قشرة لامعة وساطور في بطنه. قبل دقيقتين : يموت.

الرجل المنهوك جدا المستلقي في النجيل على جنبه الايمن، يأبى دائما ان يقبل ظاهرة بهذه الخطورة، أمام المظهر العادي الرتيب لكل الأشياء التي يراها. يعرف الساعة جيدا : الحادية عشرة والنصف... فتى كل نهار مر الآن على القنطرة.

ولكن مستحيل ان يكون قد زلق...! مقبض ساطوره (قريبا يجب أن يبدله بآخر، امسى قليل الفعالية الآن) كان مضغوطا جيدا بين يده اليسرى والأسلاك الشائكة. هو يعرف جيدا، بعد عشر سنين في الغابة، كيف يُستعمل ساطور غابوي. هو منهوك جدا فقط، بعد عمل ذلك الصباح، ويستريح هنيهة كعادته.

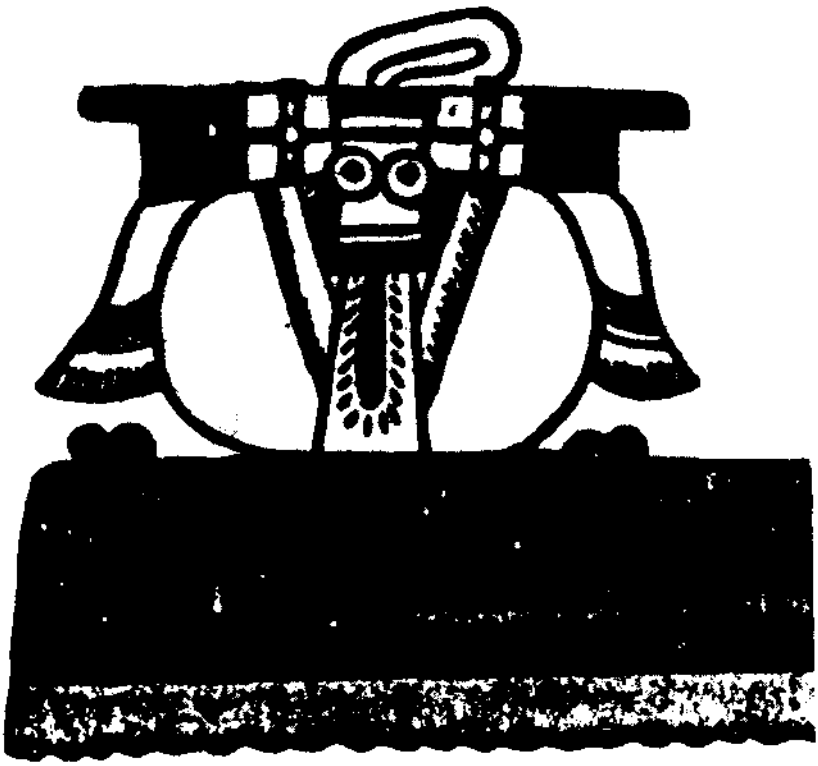

الدليل...؟ ولكن ذاك النجيل الذي يدخل الآن عبر ملتقى شفتيه زرعه هو بنفسه، في بقع من الأرض تبعد كل واحدة منها عن الأخرى مترا واحدا ! وذاك هو بستان موزه، وذاك هو حصانه، لاهثا بحذر أمام اشواك الأسلاك ! يراه جيدا، يعرف انه لا يجرؤ ان يجوز ركن الأسلاك الشائكة، لان هو مُستَلْقٍ تحت العمود. هو يراه جيدا، ويرى خيوط العرق الداكنة التي تنطلق من الغارب والردف. الشمس تسقط عمودية، والهدوء تام، فأشجار الموز لا تتحرك منها اية هُدّابة. هو رأى الأشياء عينها كل نهار، وكل نهار كان لك «ذاك النهار».

... منهوك جدا، لكنه يستريح فقط. لابد ان عدة دقائق قد مرت الآن... وفي الثانية عشرة الا ربعا، ستنطلق من هناك فوق، من الدار ذات السقف الأحمر، نحو بستان الموز زوجته وولداه الاثنان، كي يفتشا عنه ليتغدوا. يسمع دائما ــ قبل الأصوات الأخرى ــ صوت ولده الأصغر الذي يريد ان يتخلص من يد أمه : بيابيا ! بيابيا !

أليس ذاك...؟ طبعا، يسمع ! إنها الساعة. يسمع صوت ولده فعلا...

ما أشد وطأة هذا الكابوس...! لكنه نهار مثل النهارات الكثيرة، عادٍ مثلها جميعا طبعا ! ضوء قوي جدا، ظلال مصفرة، حر صامت لفرن على اللحم يجعل الحصان اللامتحرك يعرق أمام بستان الموز الممنوع.

... منهوك جدا، جدا، ولكن هذا فقط. كم مرة عبر في ظهر كهذا، وهو راجع الى الدار، ذاك المرتع الذي كان ارضا مشذبة لما جاء هو، والذي كان قبل ذلك غابة عذراء ! وقتئذ كان يعود منهوكا جدا ايضا، بساطوره يتدلى من يده اليسرى، بخطوات بطيئة.

مازال يستطيع ان يتبعد بذهنه اذا اراد، يستطيع اذا اراد ان يغادر جسمه لحظة ويرى من الصهريج الذي بناه هو المنظر الدائم العادي : الحفيات البركانية مع نجيل صلب، بستان الموز ورماله الحمراء، الأسلاك التي تصغر في العقبة متكئة عليها متجهة نحو الطريق. وأن يرى في مكان أبعد المرتع الذي من صنع يديه وحدهما. وتحت عمود مقشر، يستطيع ان يرى نفسه مستلقيا على جنبه الأيمن برجليه منثنيتين، شأنه كل نهار تماما، وهو ككتلة صغيرة مشمسة على النجيل، يستريح لانه متعب جدا...

لكن الحصان الذي يخططه العرق والذي لا يتحرك حذرا أمام زاوية الأسلاك الشائكة، يرى هو كذلك الرجل على الأرض ولا يجرؤ على دخول بستان الموز، كما يريد. أمام الأصوات التي غدت قريبة ــ بيابيا ! ــ يدير اذنيه المتحركتين نحو الكتلة لحظة طويلة، طويلة : ولما يطمئن أخيرا، يقرر ان يجوز بين العمود والرجل المستلقى الذي استراح الآن.

ترجمة محمد العشيري

ــ أوراثيو كيروغا. ولد عام 1879 ومات في 1937. يعد استاذ القصة القصيرة في أميركا اللاتينية.

عن كتاب :

LOS DESTERRADOS. HORACIO QUIROGA. EDIT. LOSADA. BUENOS AIRES. ARGENTINA. 1980.